الشعراء المظلومون في التاريخ أبو نواس وبشار بن برد أنموذجاً

الأستاذ المساعد الدكتور
جواد غلام علي زاده
جمهورية إيران الإسلامية ـ سيستان
جامعة زابل ـ كلية الآداب
j.gholamalizade@uoz.ac.ir

المقدمة:

عاش أبونواس وبشار بن برد في العصر العباسي الذي شهد تحولات هامة في صدره على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية. فالخلافة في غير أيدي الطالبيين الذين يضطهدون ويُقتلون والشعراء يمدحون ويتملقون مرتزقين من البلاط أو من رجالات الدولة وإلا فيصيبهم خنق الأنفاس. والغيرة على الدين وذريعة الزندقة تصبحان ستارا للبطش بالخصوم والمعارضين، والعرب أصحاب الدولة يتعصبون على الفرس ولم يتميز هذا العصر بهيمنة بني العباس وإبعاد الطالبيين عن الخلافة فحسب، بل تميز إلى جانب ذلك بالتطور الاجتماعي إذ انتقل الناس من حياة البداوة الى الحضارة، فاحتكوا بالشعوب غير العربية ثقافة وزواجا، فتأثروا وأثروا. وكما عرف المجتمع تقدما في العلوم والآداب، كذلك عرف تحولا بارزا في الحياة فانحرف الكثير من أفراده وعاشوا عيشة تهتك وخلاعة وانعكس كل ذلك على الشعر فاختلف عما كان عليه في العصور السابقة خاصة في تبنّيه موضوعات جديدة. كان هذا الجو مستعدا لكل اتهام، وقد قُتل كثير من الناس بتهمة الزندقة والشعوبية و الخلاعة وكان الشاعران المذكوران من المتهمين بهذه التهم حيث أكد أغلبية القدماء والجدد من بين الباحثين ومؤرخى الأدب زندقتهما ولم يتناولوا المسألة كما هي حقها. من جهة أخرى يجب علينا أن لاننسى جهودا بذلها بعض الباحثين في السنوات الأخيرة حول هذين الشاعرين من أمثال هادي بور نهزمي في مقالته بعنوان: ((أبونواس بين مطرقة الحكام وسندان التاريخ)) (١٣٩٠) حيث تحدث عن تضارب الآراء في أبي نواس وكسر هيمنة الأخبار الكاذبة حول شخصيته. كما فعل جواد غلام علي زاده نفس العمل في مقال له بعنوان: ((رؤية حديثة إلى شخصية أبي نواس ومجونياته)) (٢٠٠٢) وقد رد فيه المجون الذي

ISNN 1997-6208

نسب إلى أبي نواس. من جهة أخرى كتب الباحثون مقالات جديدة حول شخصية بشار بن برد وهجائه ورأى بعضهم أن السبب الرئيس في ميل بشار إلى الهجاء هو النقص في جسمه وحياة أسرته الحقيرة ومنهم أمين مقدسي في مقاله: ((عوامل پيدايى هجا در نزد بشار بن برد)) وقد أكد البعض أن هذا الهجاء هو الذي جعل بشارا متهما بالزندقة ومنهم موسوي بفرويي في مقاله بعنوان: ((زندقة بشار بن برد بين السياسة والواقع)). ختاما لابد أن نشير إلى ما تتميز به هذه المقالة وهي ذكر العوامل - لا العامل الواحد - التي أدّت إلى اتهامهما بالزندقة خاصة عامل الشعوبية وكذلك الولاء لأهل البيت عليهم السلام الذين لم نجدهما في دراسات الباحثين وكانا عاملين مهمين في اتهامهما بالزندقة. والمنهج الذي نريد من خلاله النظر إلى شخصيةهذين الشاعرين قائم على عرض الأخبار المتصلة بزندقتهما، شعوبيتهما وشخصيتهما، وتحليلها ومناقشتها ومقابلتها بأشعارهم المشهورة في هذا الباب. وقد استقامت لنا خطة هذا البحث كما تلي.

أ. أبو نواس

هو الحسن بن هانيء بن صباح بن عبد الله بن الجرّاح (الخطيب البغدادي، ١٩٣١، ج٧: ٤٣٦) وكنيته أبونواس. كان أبوه حائكاً وقيل: كان من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية من أهل دمشق وكان فيمن قدم الأهواز في أيّام مروان للرّباط والشحنة، فتزوجّ بـ((جلّبان)) (ابن منظور، ١٩٦٦، ج٣: ٨) وهي كانت من بعض مدن الأهواز(ابن المعتزّ، ١٩٥٦: ١٩٣-١٩٤) فأصبحت بذلك الأهواز مولد شاعرنا إلا أن الرواة اختلفوا في سنة ولادته وقد جمع ابن منظور كلّ هذه الروايات في كتابه قائلا: "كان مولده في سنة ست وثلاثين ومائة وقيل: سنة خمس وأربعين وقيل: سنة ثمان وأربعين وقيل: سنة تسع وأربعين. "(ابن منظور، ١٩٩٥: ١٢) وقد ورد في كتاب طبقات الشعراء: "ولد بالأهواز، بالقرب من الجبل المقطوع المعروف براهبان سنة تسع وثلاثين ومائة"(ابن المعتزّ، ١٩٥٦: ١٩٣). مهما قيل في سنة ولادته فإنه ليس من شك أن سنة ولادته تتراوح بين سنوات مائة وست وثلاثين حتّى مائة وتسع وأربعين. وكما اختلف الرواة في سنة ولادته، اختلفوا في سنة وفاته فيقال: "إنه مات سنة ستّ وتسعين ومائة وقيل: مات ببغداد في سنة خمس وتسعين ومائة وكان عمره تسعا وخمسين سنة ودفن في مقابر الشونيزية في تلّ اليهود" (الخطيب

البغدادي، ١٩٣١، ج٧: ٤٤٨-٤٤٩).

دينه ومذهبه:

سترت حياة أبي نواس بكثير من أستار الغموض والخفاء ولا سيّما الناحية الدينية منها. فحينا كان يُتّهم بـ "الزندقة" وقد سجن عدة مرات بهذه التهمة وحينا "كان يتّهم برأي الخوارج"(ابن المعتزّ، ١٩٥٦:١٩٥). على أن من الأدباء من يعتقد بتشيع أبي نواس وأنه كان يميل مع أهل البيت عليهم السلام سراً لايجسر على المجاهرة به، ومن الدلائل الهامة التي تشير إلى تشيع أبي نواس، ما قاله أبوالعلاء المعري عنه: "ولا ارتابُ أنّ دعبلاً كان على رأى الحكمي (أي أبو نواس) وطبقته، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة"(المعري،١٩٨٣: ٢٠٧). فإننا إذا نظرنا بدقة في قوله تتبين لناأنه يؤيد تشيع أبي نواس غير مباشر حيث يقول أنني لا أرتاب في أنّ دعبلاً كان على رأي الحكمي وليس يخفى على أحد تشيع دعبل وإخلاصه لآل البيت عليهم السلام وشعره الصادق فيهم.من جهة أخرى يدل كلام المعري على أن التشيع في رأي المعري هو الزندقة. وهذا دليل محكم على أن الشاعر المظلوم بسبب تشيعه وحبه لآل البيت عليهم السلام واجه حملات التشهير وسهام الزندقة؛ الأمر الذي جعله زنديقا على لسان التاريخ وهو بمعزل عنه.

تأمل في مجونه وخمرياته:

فقد أجمع غالبية الذين كتبوا عن سيرة أبي نواس وشخصيته على أنه كان عابثا فاسقا ماجنا أو على أحسن الفروض نقول أنه تضاربت الآراء وتباينت الأخبار فيما يتعلق بشخصية أبي نواس وورود طائفة كثيرة من الأشعار الخمرية في ديوانه وانتسابها إليه بحيث لايتاح للإنسان التعرف الصحيح على حقيقة أمره وحقيقة شعره الخمري. نرى الأدباء يذهبون في ذلك مذاهب شتى فبعضهم يرمونه بسهام الكذب والإفتراء وينسبون إلى الشاعر كل مجون واستهتار وهؤلاء عددهم كثير ومن أمثالهم: حنا الفاخوري(الفاخوري، ١٤٢٧، ج١: ٦٩٤) ورينولد نيكلسون(رينولد نيكلسون، ١٣٨٠: ٣٠٦) وبعض منهم يأخذون من هذه القضية موضع التأمل والتشكيك في كثير من هذه القصائد الماجنة المنسوبة إلى أبي نواس ويعتقدون أن الشاعر قد أحيط بمبالغات كثيرة في تصوير مجونه ومنهم شوقي ضيف(ضيف، بلاتا:١٦٠) وآذرشب(آذرشب، ١٣٨٢: ٩٢).

مردّ هذه الخلافات العميقة بينهم إلى الأخبار المتناقضة في حياته وشعره؛ فعلى سبيل المثال نرى في شعره ما يدل على مجونه وكذلك ما يدل على زهده وانظر إلى الآراء المتباينة في زهدياته إذ قيل إنه كان يقول هذه الزهديات بعد أن زجّ في السجن، وقيل إن الشاعر قالها في آخر سنيّ حياته بعد أن كف عن مجونه (المصدر نفسه: ٩٨). على أن شوقي ضيف يرد هذا الرأى ويقول: " أما الزعم بأنه كف في آخر حياته عن الملاذ فهو زعم باطل، إنما تلك كانت لحظات صحو تعتريه من حين إلى حين"(ضيف، بلاتا:١٦٣). الحقيقة أنه مهما كان من الأخبار المتناقضة في أبي نواس فإنهم اتفقوا جميعا على غزارة علمه وتفقهه ووجود ما يدل على الزهد وهكذا ما يدل على المجون في الأشعار المنسوبة إليه؛ فلا بد أن نركز على هذه القضايا ونتناولها حتى نصل إلى معرفة صحيحة عنه.

وأما بالنسبة إلى معارفه فقد قال ابن منظور: "كان أبو نواس متكلماً جدلاً، راوية فحلاً، رقيق الطبع، ثابت الفهم في الكلام اللطيف. ويدلّ على معرفته بالكلام أشياءُ من شعره."(ابن منظور، ١٩٩٥: ٢١) وقال الجاحظ إنه كان نحيفاً، في حلقة بحّة لا تفارقه وكان إذا دخل حلقة الدرس، التفت القوم إلى حسنه وحداثة سنّة وذكائه وقوة تحصيله. قرأ القرآن على يعقوب الحضرمي إمام القرآء فلما حذّق القراءة رمى اليه يعقوب بخاتمة وقال : إذهب فأنت أقرأ أهل البصرة (المصدر نفسه، صص ١٢-١٥). كما ورد في كتاب طبقات الشعراء: "كان أبو نواس عالماً فقيهاً، عارفاً بالأحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ ومعرفة بطرق الحديث. يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، محكمه ومتشابهه. وقد تأدبّ بالبصرة، وهي يومئذٍ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين" (ابن المعتزّ، ١٩٥٦:٢٠١).

بدا لنا من خلال هذه الأقوال أن أبا نواس كان من كبار رجال العلم والأدب والحديث في عصره وهذه الأقوال في الحقيقة غرفة ماء اغترفناها من بحر لضيق المجال. وأما في ما يخص زهده فلا يخفى لمن يتورق صفحات أشعاره أن الزهد قد أخذ مكانته من أشعاره وأن الشاعر طرق هذا الفن بحيث أجاد فيه وأحسن حتى أصبحت أشعاره في هذا الفن أناشيد وتراتيل للمؤمنين على مرّ العصور لوضوحها وعذوبتها وعمقها ومن هذه الأشعار قوله:

إلهَنـــــا مـــــا أعـدَلـــــكَ مَلِيـــــك كـــلٌ مَـــن مَلَـــك

لَبَّيـــــك قَـــــد لبَـــــّيتَ لـــــك

لبّيـــــك! إنَّ الحمـــــدَ لـــــكَ والملـــــك لا شَريـــــكَ لَـــــك

مـــــا خَـــــاب عَبـــــدٌ سَألـــــكَ أنـــــتَ لَـــــهُ حَيـــــثُ سَلَـــــك

لَـــــولاك يـــــا رَبِّ هَلَـــــك

(أبونواس، ١٩٩٧: ٤١٠)

هذا الأبيات وكذلك سائر أشعاره الزهدية تنمّ عن تجربة شعورية صادقة للشاعر مع ربه حيث يقول الفاخوري بهذا الصدد: " في شعره الزهدي صدق ورقة وعذوبة مؤثّرة "(الفاخوري، ١٤٢٧، ج١: ٦٩١) لاريب أن مثل هذه الزهديات في أشعار أبي نواس تجعلنا نشك ونتأمل - على الأقل- فيما قيل عنه من مجون وخلاعة.وأما فيما يتعلق بمجون أبي نواس فليس من شك في وجود طائفة كبيرة من المجونيات والخمريات في ديوانه وما جاء عنه منتشرا في الكتب الأخرى غير أن تأييد هذه الأشعار تحتاج إلى دقة نظر وظرافة رؤية، فهناك عوامل مختلفة تحول دون تأييد هذه الشخصية العابثة التي ذكرها المؤرخون والرواة من خلال هذه المجونيات ونحن نورد هذه العوامل فيما يلي:

ـ عامل الإنتحال:

لانبعد عن الحق إذا ادّعينا أن كثيرا من مجونيات أبي نواس منحولة نحلها إليه الناس أو حتى الخلفاء والأمراء والوزراء والذين كان لهم وَضعهم الطبقي والاجتماعي الخاص إلى جانب ما يتمتّعون به من نفوذ سياسي وفي الحقيقة كانت لهم شخصيتان: الأولى هي الشخصية الرسمية عند الناس تحافظ على العفّة والطهارة والرزانة والثانية شخصية عابثة ماجنة تَظهر في خلواتهم. هؤلاء إذا حضروا مجالس الأنس والطرب مع الغلمان والجواري والمغنّين جادت قريحتهم بشعر مُسفّ فاحشٍ نسبوه إلى أبي نواس خوفاً من قدرهم وموقعهم الاجتماعي والسياسي (هادي بور، ٢٠٠٩: ٦) ولا نبالغ إذا قلنا إن أشعار الحسين بن ضحاك الخليع ونظرائه من المجان؛ تلك التي فقدت قد دخلت في ديوان أبي نواس كما يقول ابن

المعتز: " إن العامة الحمقى من الناس قد لهجت بأن تنسب كل شعر في المجون إلى أبي نواس وكذلك تصنع في أمر مجنون بني عامر؛ كل شعر فيه ذكر ليلى تنسبه إلى مجنون"(ابن المعتزّ، ١٩٥٦:٨٨). ولذلك يكون من الخطأ أن ننسب إليه كل ما جاء في ديوانه من خمريات وغزليات عابثة ثم أضف إلى هذا موقف الصولي من ديوان أبي نواس. فقد رفض أبو بكر الصولي كثيرا مما نسبوا إلى أبي نواس في ديوانه برواية حمزة الإصفهاني. والديوان برواية الصولي يخلو من كثير من شعر المجون والابتذال.

ـ العامل السياسي:

من أهم العوامل التي جعل أبا نواس ماجنا عابثا في لسان التاريخ هو تمرده على السلطة الجائرة الفاسقة وحبّ الناس له مما جعل السلطة الحاكمة أن تخاف من هذه الشعبية وأن لاتقتله جهرة ولذلك عكفت إلى حيل أخرى للحيلولة دون هذه الشعبية الكبيرة فاتهموه بالزندقة حينا والشعوبية حينا آخر - فعلهم مع الكثيرين من الشعراء والأدباء من أمثال: ابن المقفّع، وعبد الحميد الكاتب، وصالح بن عبد القدوس، وبشار بن برد. ومكانة هؤلاء الأفراد في معاداة العرب لعنصريتهم لا تخفى- ومن جرّاء ذلك غضبوا على أبي نواس فسجنوه مرات عديدة كما نسبوا إليه أشعارا خمرية وخليعة يشوّهوا بها سمعته وبذلك يقللوا من محبوبيته عند الناس وقيل بهذا الصدد:" تجذبه بغداد فيتحول إليها ويقدمه إسحق الموصلي إلى الرشيد، ولايلبث أن يغضب عليه فيُسجن ، لما يلجّج فيه من عصبية مسرفة لمواليه القحطانيين"(ضيف، بلاتا: ١٥٨) وقيل "حُبس أبو نواس بما ذكر عنه من الزندقة ولم يزل محبوساً في حبس الزنادقة حتى مات الرشيد وقام الأمين"(ابن منظور، ١٩٩٧: ٢٩٩) وقدبقي في سجن الزنادقة أكثر من سنتين، فتوسط له الفضل بن الربيع وزير الأمين فأطلقهُ الأمين وجعله نديماً وشاعراً لهحيث يقول:

إنّي أتيتكُم مِنَ القَبرِ ... والناسُ مُحتَبِسُونَ لِلحَشرِ
لولا أبُو العَباسِ ما نَظرَت ... عَينَيَّ إلى وَلَدٍ ولا وَفرِ

(أبونواس، ١٩٩٧:٢٧١)

ومما يؤيد وجود العامل السياسي في جلب سوء السمعة لأبي نواس ما جاء في أخبار المأمون أنه لما اشتدتالحرب بين الأمين والمأمون حاول أن ينسب إلى الأمين كل قبيح؛ ومن

ذلك تهويل ما اشتهر به أبو نواس من فساد عندما كان نديما للأمين. وعمل المأمون كتبا بعيوب الأمين لتقرأ على منابر خراسان، وكان مما عابه به أن قال: "إنه استخلص رجلا شاعرا ماجنا كافرا يقال له الحسن بن هانئ ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم"(أبونواس، ١٩٩٧:١٥٨).

ـ العامل الفكري والعقيدي:

من أخرى جنايات التاريخ على أبي نواس هي الأخبار التي تقول إنه كان يختلف إلى حلقات الحكام والأمراء المجّانين في الحانات ويأنسها والحق أنه كان يتهرّب من هذه المجالس وكان يترك الطرب مع الغلمان والجواري والمغنّين لاتّجاهه العقيدي والفكري. وهذا هو أبو نواس يقول: "إنما يَصبر على مجالسة هؤلاء الفحول المنقطعون الذّين لا ينبعثون ولا ينطقون إلاّ بأمرهم. والله لكأنّي على النّار إذا دخلتُ عليهم حتى انصرفَ إلى إخواني ومن أشاربه، لأني إذا كنتُ عندهم فلا أملك من أمري شيئا "(ابن المعتز، ١٩٥٦: ٢٠٢). وهذا قول أبي نواس حيث يقول: "لا أكادُ أقول شعراً جيداً حتّى تكون نفسي طيبة." (ابن منظور، ١٩٩٥: ٤١) كما ورد فيه: "كان أبو نواس في دعاويه يتماجن ويعبث"(المصدر نفسه: ٣٥). يفسر أبو نواس مجونه فيقول في هذا الصعيد:" وأمّا المجون، فما كلُّ أحدٍ يحسن أن يمجن، وإنما المجون ظُرف ولستُ أبعدُ فيه عن حدّ الأدب ولا أتجاوز مقداره."(ابن منظور، ١٩٦٦، ج٣: ٢٠١) ويؤكد هذا الكلام قوله: "والله ما فتحتُ سراويلي لحرامٍ قطّ" (ابن عساكر، ١٩٣٢،ج٤، ص٢٦٤).

ـ عامل التجديد في الشعر والسعاية:

يتعلّق هذا العامل باتجاه أبي نواس الأدبي وبمذهبه الجديد في الشعر الذي تمثلت فيه ثورتُه على منهج القصيدة والنظام الشعري القديم، بحيث انبرى إلى السخرية من اعتماد الشعراء على الطريقة القديمة البالية والتي لاتواكب الروح الحضارية الجديدة؛ فعلى سبيل المثال كان يسخر أحيانا بالقبائل التي تفاخر بأنسابها، يقول واصفا ديكا:

أنعَتُ ديكاً مِن دُيوك الهندِ ... كريمَ عمٍّ وكريمَ جَدِّ

لنسبةٍ ليسَت إلى معدِّ ... ولاقضاعيٍّ ولا في الأزدِ

(أبونواس، ١٩٩٧:١٩٣)

ISNN 1997-6208

وبذلك نراه ثائرا على أساليب القدماء فخالفه الشعراء الذين كانوا يحافظون على المنهج القديم وبثّوا دعايات كثيرة ضده. كما يتعلّق هذا العامل بعدد من الشعراء المعاندين له والذّين لهم موقفهم الصريح المؤيد للحكم العباسي والمعارض لِآل البيت عليهم السلام. ومن هؤلاء الشعراء: مروان بن أبي حفصة، وسلم الخاسر، والرّقاشي وأبان عبد الحميد اللاحقيشاعر البرامكة (هادي بور، ٢٠٠٩: ٦).

ـ عامل المباراة:

وأخيرا مما يجلب النظر في مجونيات أبي نواس هو دافع المبارة والمسابقة حيث نرى الشعراء كانوا يجتمعون للمباراة في معنى من المعاني الشعرية. على سبيل المثال نأخذ مجلسا اجتمع فيه دعبل الشاعر ومسلم وأبو الشيص و أبو نواس فقال أبو نواس: إن مجلسنا اشتهر باجتماعنا فيه فليأت كل واحد منكم بأحسن ما قال فلينشده فأنشد أبو الشيص فقال:

وَقَـفَ الهَـوَى بي حَيـثُ أنـتَ فَلَـيسَ لي ... مُتَـأَخَّـــرٌ عَنـــــهُ ولا مُتَـقَـــدَّمُ

أجِـــدُ المَلامَـــةَ في هَـــوَاكَ لَذيـــذَةً ... حُبّـــاً لِـذِكـــرِكَ فَـليَلُـــنِي اللُّـــوَّمُ

فأعجب أبو نواس من حسن الشعر وما كاد ينقضي عجبه حتى أنشد مسلمأبياتا من شعره الذي يقول فيه:

فَأُقسِـمُ أَنسَـى الدَّاعِيـــاتِ إلى الصِّـبا ... يمَينـــاً وقَـــد فاجَـــأتُ والسِّـــترُ وَاقِـــعُ

فَـــغَطّت بِأيـــديهَا ثمـــارٌ نحُـــورُها ... كأيـــدِي الأسَـــارَى أثقَلَتـــهَا الجَوامِـــعُ

فقال أبو نواس لدعبل: هات أبا علي وكأني بك قد جئتنا بأمّ القلادة فقال دعبل: يا سيدي! من ياهيك بها غيري ثم أنشد:

أيـــنَ الشَّبـــابُ وأيـــــةً سَـــلكا ... أم أيـــنَ يَطلـــبُ ضَـــلّ أم هَلَـــكا

لا تَعجَـــبي يَـــا سَـــلمُ مِـــن رَجُـــلٍ ... ضَحِـــكَ المَشـــيبُ بِرَأسِـــه فَبَكَـــى

ثم أنشد أبو نواس:

لاتبـــك هنـــدا ولاتطـــرَب إلى دَعـــدِ ... واشـرَب عَلـى الـوَردِ مِـن حَمـراءَ كـالوَردِ

كأســـاً إذا انحَـــدَرَت في حَلـــقِ شَـــارِبها ... وَجَـــدتَ حمُرَتـــها فـــي العَـــينِ والخَـــدِّ

ISNN 1997-6208

فَـــالخمرُ ياقُوتَـــةٌ والكـــأسُ لُؤلُـــؤةٌ في كـــفِّ جاريـــةٍ مَمشُـوقَـــةِ القَـــدِّ

فقام الجميع فسجدو له (اللحام، ١٤٢١: ٣٦-٣٧). وكذلك من تلك المباريات في هذا العصر ما روي من أن أبا حكيمة ظل ينشد في العُنّة حتى أنشده ابن أبي طاهر أبياتا يقول فيها:

أيَـــــرى عَلَـــــى مَـــــعَ الزَّمـــــا ن فَمَـــــــن أذُمُّ ومَـــــن ألُـــــومُ

فلما سمع ذلك أبو حكيمة قال: والله إنه لاشريك لي في هذا الفن، وإني قد تفردت به من دون الخلق. وأنا أعطى الله عهدا يأخذني به إن قلت شيئا بعدها في هذا المعنى(الكفراوي، بلاتا، ج٢: ٨٣). فهاتان الروايتان تدلان فقط على مباراة الشعراء في ميدان المعاني الشعرية من دون دلالة على انحدار عملي في الموبقات ونستنتج أن أبا نواس كان بمعزل عن المجون على أنه لم ينعزل عن ميادين المباراة للمعاني الشعرية ويمكن أن ندرج غلاميات المنسوبة إلى الشاعر تحت هذا العنوان لأنه لم يكن فاتح هذا الباب وكان الغزل للمذكر رائجا في عصره وأن أبا نواس أدلى بدلوه في هذا الباب فعلَ كثير من الشعراء على أن هذا النوع من الغزل يمكن أن يكون من باب الظرافة والدعابة وسنتحدث عنه فيما يلي إن شاء الله.

ـ عامل الدعابة والظرافة:

ومما يؤيد قولنا أن الشاعر لم يكن غارقا في الشهوات والملاهي، إذعان الكتب التاريخية بأن أبانواس كان رقيقا ظريف النكتة خفيف الظل شديد السخر والإستهزاء يسوق للناس نوادر تضحكهم فكانوا يرسلون في طلبه إلى مجالسهم فيفاكههم ولايخلو من أن تكون مجاهرته بالغلاميات ضربا من التظرف والدعابة ولعل ذلك ما جعله يتحول في بعض القصص إلى شخصية قصصية مضحكة مع مرّ الزمن وللتعرف على خمريات أبي نواس يجب علينا أن نتعرف على دور الظرف والتظاهر بالجنون والتماجن في تلك الفترة العباسية ولا سيما في عهد الخليفة هارون الرشيد. ولهذه الأشكال الثلاثة دور هام في الحكومات الدينية الجائرة على مرّ العصور ولاسيّما في العصر العباسي الأول. وقد لجأ أبو نواس إلى التظرف وإظهار المجون وكان من الشيعة واتّخذ "التقيّة" مذهباً له (هادي بور، ٢٠٠٩: ٦).

ومن خلال القراءات الواسعة ينكشف لنا أنّ كثيرين من الشعراء والأدباء اتخذوا التظرّف في تلك الفترة طريقاً لتبيين أفكارهم وتماجنوا خوفاً من السلطة الجائرة الّتي كانت تحكم باسم الاسلام فمثلاً نرى بهلولاً، أعني بهلول بن عمر الصيرفي الكوفي المتوفّى سنة ١٩٨هـ، لجأ إلى التظاهر بالجنون في حين "كان بهلول عالماً كبيراً ذا عقل وفير وهو من أصحاب الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام. أراد هارون الرشيد أن يجعله قاضياً ليفتي له بقتل الإمام موسى الكاظم عليه السلام بدعوي أنّه يريد الخروج عليه. فتجانن وركب قصبة يطوف بها أزقّة الكوفة، فقال الناس جُنّ بهلول وكان في حالته تلك، ينتقد الرشيد انتقادات لاذعة وأخباره تدلّ على أنه كان من أهل الموالاة والتشيع لأهل البيت عليهم السلام "(بيضون، ١٩٩٨: ٥-٦) ومما يؤيد هذا الرأى ما روى عن ابن المعتز في صدد الحديث عن محمد بن حازم حيث يقول: "وهو أحد جماعة كانوا يصفون أنفسهم بضد ما هم عليه حتى اشتهروا بذلك، منهم أبو نواس كان يكثر ذكر اللواط ويتحلّى به وهو أزنى من قرد، وأبو حكيمة كان يصف نفسه بالعنة ، وكان يقال إنه يقصّر عنه التيس، وجحشوية كان يصف نفسه بالأبنة، وكان ينزو على الحمير فضلا عن غيرها ، وابن حازم كان يصف نفسه بالقناعة والنزاهة، وكان أحرص من الكلب"(الكفراوي، بلاتا، ج٢: ٨٢-٨٣).

ب) بشار بن برد ٩٥ ـ ١٦٧هـ/٧١٤ ـ ٧٨٤م

أبو معاذ بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي الضرير الشاعر المشهور وهو بصري قدم بغداد، وكان يلقب بالمرعث لأنه كان في أذنه وهو صغير، رعاث وهو (القرط). أصله من طخارستان (غربي نهر جيحون) من سبي المهلب بن أبي صفرة. كان أبوبرد طيانا يضرب اللبن. ولد بشار أعمى جاحظ العينين، وكان ضخما طويلا، وهو في أول مرتبة المحدثين من الشعراء المجيدين فيه، ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، شهر فيهما ومدح وهجا وأخذ سني الجوائز مع الشعراء (الأصفهاني، ٢٠٠٠، ج٣: ١٠٨؛ ابن خلكان،١٣٩٨، ج١: ٢٧٤).قال فيه الأصمعي: "قال بشار الشعر وله عشر سنين، فما بلغ الحلم إلا وهو مخشيّ معرة اللسان بالبصرة، وهو خاتمة الشعراء" (الأصفهاني، ٢٠٠٠، ج٣: ١١٠).أخذ بشار يتردد على حلقات العلم والمعرفة والأدب ويتصل بشيوخها حيث كانت البصرة آنذاك من حواضر العلم والثقافة، فاستطاع بدقة فكره، وحدّة ذهنه، وبما تهيأ له من البيئة العلمية أن

يوسّع معارفه ويغذّي عقله حتى احتلّ درجة مرموقة في هذا الميدان؛ بل ربما احتلّ درجة السبق فيه حتى عدّه صاحب الأغاني من المتكلّمين الستة الذين كانوا يتواجدون في البصرة فقال: " كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وبشار الأعمى، وصالح بن عبد القدّوس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزد- وقال أبو أحمد: يعني جرير بن حازم - فكانوا يجتمعون في منزل الأزديّ ويختصمون عنده"(المصدر نفسه: ١١٢).

زندقة بشار:

كثر الحديث عن زندقة بشار في التاريخ وعلقت هذه الشبهة بشخصيته من جراء سلوكه قبل كل شيئ، فهو بطبيعته متبرم بالناس مفطور على استعدائهم، إذ شحذ لسانه منذ الصغر بهجائهم، حتى لكأن موضوع الهجاء كان وسيلة لإثبات وجوده (علي محمد، ١٤٢٦: ٩٥) ثم كانت تهمة الشعوبية له مجالا آخر لتثبيت تلك الشبهة، فكان إتهامه بالزندقة ناشئا من هجائه أولا وشبهة شعوبيته ثانيا؛ ثم أضف إلى هذين الأمرين أن ميول بشار العلوية والشيعية من الأسباب الهامة في تخطئته واتهامه بالزندقة.

ـ هجاء بشار واتهامه بالزندقة:

كان بشار- على نحو ما يذكر الأصفهاني- قد قال الشعر ولم يبلغ عشر سنين، فكان أول عهده بالشعر يهجو الناس،"فإذا هجا قوما جاؤوا إلى أبيه فشكوه فيضربه ضربا شديدا، فكانت أمه تقول: كم تضرب هذا الصبي الضرير، أما ترحمه؟ فيقول: بلى والله إني لأرحمه، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى، فسمعه بشار فطمع فيه فقال له: يا أبت إن هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر، وإني إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلي، فإن شكوني إليك فقل لهم أليس الله يقول: (ليسَ على الأعمَى حَرَجٌ) فلما عاودوه شكواه قال لهم بُرد ما قاله بشار فانصرفوا وهم يقولون: فقه بردٍ أغيظ لنا من هجاء بشار "(الأصفهاني، ٢٠٠٠، ج٣: ١٥٨) وواضح أن بشارا منذ صغره قد أدرك خطورة الهجاء وأثره البالغ في الناس فشحذ لسانه بذمهم ليهابوه ويتجنبوا معرة لسانه وفي الوقت نفسه جعل من الهجاء وسيلة للتكسب فروي عنه أنه قال: "دخلت على الهيثم بن معاوية وهو أمير البصرة فأنشدته:

إنَّ السَّـــــلامَ أيُّـــــها الأمـــــيرُ عَلَيـــــك والرَّحمَـــــةُ والسُّـــــرُورُ

فسمعته يقول: إن هذا الأعمى لايدعنا أو يأخذ من دراهمنا شيئا، فطمعت فيه فما برحت حتى انصرفت بجائزته"(المصدر نفسه: ١٥٥). لذلك كان الموسرون بالبصرة يسترضونه تجنبا لهجائه وهو بطبعه لم يكن يحسن مصانعة الناس ومن ثم لم يكن بارزا في المدح كبروزه في الذم وقوله في الخبز الآنف لأبيه: "أغنيتك وسائر أهلي" عظيم الدلالة على ميله الشديد إلى الهجاء وتكريسه هذا الموضوع للنيل من الخصوم ومن ثم حصوله غصبا على جوائزهم.

إذن بشار من محترفي الهجاء، تصيد فيه سقطات الخصوم، وأمعن في تصوير مباذلهم، وقد تمرس في هذا الباب كما تروي الأخبار، إذ حمل في نفسه صور النقائض التي كانت تدور بين أعلام الشعر الأموي، ولهذا اختلف إلى المربد وعاين جولات الخصوم في التهاجي، وقد أحب أن يشارك في ذلك، فقال: "هجوت جريراً فأعرض عني، ولو هاجاني لكنت أشعر الناس (المصدر نفسه: ١١١) إذ أراد أن يمتحن قدرته البيانية في الهجاء فكانت نفسه تنازعه إلى مقارعة جرير وغيره من كبار الشعراء. وما إن تمكن من هذه الأداة الجارحة حتى انخرط في مهاجاة أعلام عصره وكبار الشخصيات إذ نراه يتعرض للمفكرين والزهاد والنقاد والنحاة والشعراء، فكان هجاؤه لواصل بن عطاء قد أضفى على شخصه رنينا هائلا، وبالمقابل أشعر خصمه بإهانة بالغة (علي محمد، ١٤٢٦: ٩٥)، والخلاف بين الرجلين غامض إذ لم تفصل المصادر فيه، وكل ما هناك أن بشارا كان في بادئ أمره من أصحاب الكلام، وكذلك كان واصل بن عطاء، فلما صار واصل إلى الإعتزال وصار بشار كما يقول الأصفهاني إلى الرجعة، حدث اختلاف بين الرجلين من حيث المذهب الفكري، فانقلبت العلاقة بينهما من علاقة ود واعجاب - إذ سجل الأصفهاني شعرا يمدح فيه بشار واصلا ويشيد بخطبه وبلاغته - إلى علاقة عداء وخصومة فهجاه هجاء موجعا في قوله:

مَـــا لي أُشَايِـــعُ غَـــزّالاً لَـــه عُنُـــقٌ كعُنقِـــــقِ الـــدّوِّ إن وَلّـــى وإن مَثَـــلا

عُنُـــقَ الزَّرافَـــةِ مَـــا بَـــالي وبَالـــكُم تُكفِّـــرُونَ رِجَـــالاً كفَّـــرُوا رَجُـــلا؟

ISNN 1997-6208

فما كان من واصل إلا أن حرّض الناس عليه متهما إياه بالزندقة والفجور، فكان يقول في مجالسه: "أما لهذا الأعمى الملحد، أما لهذا المشنّف المكنيّ بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه في جوف منزله أو في حفله"(الأصفهاني، ٢٠٠٠، ج٣: ١١١). واضح أن الخصومة بين الرجلين حملت واصل بن عطاء على اتهام بشار بالزندقة وكانا قبل ذلك على ود ومحبة ولما اختلفا أخذ واصل يبين عواره ويتتبع سقطاته في أشعاره ويدعو الناس إلى قتله والتخلص منه كما يبين الخبر الآنفوليس ذلك فحسب بل شهر الهجاء بوجه عامة الناس والسوقة، وهذا ما أذهبَ بشاشة شعره وجعله هدفاً للخصوم ليوجهوا السهام إلى عقيدته أولاً، كالذي كان يصنعه حماد عجرد وقد دس عليه كثيراً من الأقوال، ونحله بعضاً من الأشعار ثم أشاعها في الناس ليبرزه فاسقاً ماجناً، ولعل أخطر تلك الأشعار التي حرفها قوله:

ابـــنَ نهـــيَا رَأسٌ عَلَـــيَّ ثَقِيـــلُ ... واحتِمـــالُ الرَّأسَـــينِ خطـــبٌ جَلِـــيلُ

ادعُ غَيـــــرِي إلى عِبـــادَةِ الاثنَيـــــ ... ـــن فَـإنِّـــــي بِـــــواحِدٍ مَشـــغُولُ

يَـــا بـــنَ نهـــيَا بَرِئـــتُ مِنـــكَ إلىَ اللهِ ... جِهَـــــاراً وَذاك مِـنِّـــــي قَلِيـــلُ

(ابن برد، ١٩٩٦: ٤٧١-٤٧٢)

وقال الأصفهاني: "فأشاع حماد هذه الأبيات لبشار، وجعل فيها مكان (فإني بواحد مشغول) (فإني عن واحد مشغول) لتصح عليه الزندقة، فمازالت الأبيات تدور في أيدي الناس حتى انتهت إلى بشار فاضطرب منها وجزع، وقال أساء بذمي، والله ما قلت إلا "فإني بواحد مشغول" فغيرها حتى شهرت في الناس"(الأصفهاني، ٢٠٠٠، ج ١٤: ٢٢٦).ولم يكن بشار قد اقتصر على هجاء العامة والدهماء من الناس، وإنما تجاسر على الكبراء والقادة والرؤساء وهذا أسهم بدوره في تشنيع سيرته، فقد روي أنه هجا روح بن حاتم فحلف أن يقتله، غير أنّ بشاراً استجار بالمهدي فشفع له عند روح ثم هجا العباس بن محمد،كما هجا غيره من الكبراء، وقد كان هجاؤه للخليفة المهدي فيه ختام حياته إذ قتله بتهمة الزندقة (بفرويي، ١٣٨٨، ١٢٦) وتفصيل ذلك ما أورده الأصفهاني في قوله: "خرج بشار إلى المهدي ويعقوب بن داود وزيره فمدحه ومدح يعقوب فلم يحفل به ولم يعطه

شيئاً، ومر يعقوب ببشار يريد منزله فصاح به بشار: (طال الثواء على رسوم المنزل) فقال يعقوب: (فإذا تشاء أبا معاذ فارحل)، فغضب بشار وقال يهجوه:

بَنـــي أُمَيَّـــةَ هُبُّـــوا طـــالَ نَومُـــكُم ... إنَّ الخَلِيـــفَةَ يَعقُـــوبُ بـــنُ داوُدُ

ضَـاعَت خِلافَـتُكم يَـا قَـومُ فَالتَمِسُـوا ... خَلِيـــفَةَ اللهِ بَيـــنَ الـــزِّقِّ والعُـــودِ

فلما طالت أيام بشار على باب يعقوب دخل عليه وكان من عادة بشار إذا أراد أن ينشد أو يتكلم أن يتفل عن يمينه وشماله ويصفق بإحدى يديه على الأخرى ففعل ذلك وأنشد:

يَعقُـــوبُ قَـــد وَرَدَ العُـــفَاةُ عَشِـــيَّة ... مُتَـعَرِّضِـــينَ لِـسَيبِـــكَ المُنتَـــابِ

فَسَقَيتَـــهُم وَحَسِبتَـــنِي كَمُّـــونَةً ... نَبَتَـــت لِـــزَارِعِـــهَا بِغَـــيرِ شَـــرَابِ

مَهـــلاً لَدَيـــكَ فَإِنَّـــنِي رَيحـــانَةٌ ... فَاشمـــم بِأنـــفِكَ وَاسقِـــهَا بِذِنَـــابِ

طـــالَ الثَّـــواءُ عَلَـــى تَنَظُّـــرِ حَاجَـــةٍ ... شَمِطَـــت لَـــدَيكَ فَمَـــن لهـــا بخِضَـــابِ

تُعطِـــى الغَزِيـــرَةُ دَرَّهَـــا فَـــإذا أَبَـــت ... كَـــانَت مَلامَتُـــهَا عَلَـــى الحُـــلّابِ

يقول ليعقوب: أنت من المهدي بمنزلة الحالب من الناقة الغزيرة التي إذا لم يوصل إلى درها فليس ذلك من قبلها إنما هومن منع الحالب منها، وكذلك الخليفة ليس من قبله لسعة معروفة إنما هو من قبل السبب إليه، فلم يعطف ذلك يعقوب عليه وحرمه، فانصرف إلى البصرة مغضباً، فلما قدم المهدي البصرة أعطى عطايا كثيرة ووصل الشعراء وذلك كله على يدي يعقوب فلم يعط بشاراً شيئاً من ذلك فجاء بشار إلى حلقة يونس النحوي فقال: هل ههنا أحد يُحتشم؟ قالوا له: لا، فأنشأ بيتاً يهجو فيه المهدي، فسعى به أهل الحلقة إلى يعقوب، فقال يونس للمهدي إن بشاراً زنديق وقامت عليه البينة عندي بذلك وقد هجا أمير المؤمنين فأمر ابن نهيك أن يضرب بشاراً ضرب التلف ويلقيه بالبطيحة"(الأصفهانى، ٢٠٠٠، ج٣: ١٨٦-١٨٧).

ومن الملاحظ أن المهدي أمر بقتل بشار بسبب الهجاء لا بسبب الزندقة، فالزندقة كانت شبهة حاضرة لكل من يخرج على أمر الخليفة أو يهجوه، فهجاء بشار لابن داود ثم تعرضه للخليفة جعله يدفع حياته ثمناً لذلك التعابث، ومن الطريف أن يونس النحوي كما يذكر

الخبر الآنف قد استشف زندقة بشار وبدت له البينة من خلال هجاء الخليفة ليس غير، مما يشي أن الرجل راح ضحية شعره، ثم كان هنالك من يريد التخلص منه فأوغر صدر الخليفة عليه ليقتله بتهمة الزندقة (على محمد، ١٤٢٦: ٩٨) وتروي المصادر متابعة للخبر السابق أن المهدي لما ضرب بشاراً "بعث إلى منزله من يفتشه وكان يتهم بالزندقة فَوُجِد في منزله طومار فيه بسم الله الرحمن الرحيم، إني أردت هجاء آل سليمان بن علي لبخلهم فذكرت قرابتهم من رسول الله فأمسكت عنهم إجلالا له ﷺ، على أني قد قلت فيهم:

دِينـــــارُ آلِ سُـــــلَيمانِ ودِرهَمُـــــهُم ... كالبَـابِليـــــيِّنِ حُفّـــــا بِالعَفـــــارِيتِ

لايُبصَـــــران ولايُرجَـــــى لِقـــــاؤُهُما ... كمـــــا سَمِعـــــتَ بهـــــارُوتٍ وَمَـــــارُوتِ

فلما قرأه المهدي بكى وندم على قتله، وقال: لاجزى الله يعقوب بن داود خيرا. فإنه لما هجاه لفّق عندي شهودا على أنه زنديق فقتلته ثم ندمت حين لايغني الندم"(الأصفهانى، ٢٠٠٠، ج٣: ١٨٩).

ـ شبهة شعوبية بشار واتهامه بالزندقة:

قد رمي بشار بالشعوبية ويستدلون على ذلك بأشعاره التي يفخر فيها بنسبه الفارسي ويطعن بالعرب، مما جعل العرب والخلفاء العباسيين يتحفزون لإسكاته، وشعره في الخمر والنساء هيّأ الجو لإلصاق تهمة الزندقة به، فألصق به شعر يقدس النار وهو ليس من نظمه:

الأرضُ مُظلِمَـــــةٌ والنـــــارُ مُشـــــرِقَةٌ ... والنـــــارُ مَعبُـــــودَةٌ مُـــــذ كانَـــــت النـــــارُ

كما ألصق به البيتان التاليان في تفضّل إبليس على آدم وليسا من نظمه:

إبلِـــــيسُ خَيـــــرٌ مِـــــن أبِيـــــكم آدَمُ ... فَـــتَنَبَّـــــهُوا يَـــــا مَعـــــشَرَ الفُجَـــــارِ

النـــــارُ عُنصُـــــرُهُ وآدَمُ طِينـــــةٌ ... والطِيـــــنُ لايَســـــمُو سُـــــمُوَّ النَـــــارِ

(موسوي بجنوردي، ١٣٨٣، ج ١٢: ١٦٤)

لكن بعض الباحثين يرى أن شبهة الشعوبية تعود إلى ما لقيه من تحقير بسبب أصله. يقول العالم التونسي محمد الطاهر بن عاشور: ((وأما ما نسبوه إلى الشعوبية وهي كراهية العرب وتحقيرهم فالظاهر أن بشارا كان ينزع إلى ذلك بعد أن أعتد له أعدائه ومنافسوه

التحقير بالولاء، فألجأ إلى الإفتخار بنسبه الفارسي، ثم التبرم من الولاء ... ولكنه لم يكن مع ذلك يتنقص العرب)) (آذرشب، ١٣٨٢: ٨٣).

وإذا دققنا في هذا الأمر لوجدنا أنه ناجم عن مواقف شخصية أكثر من كونه موقفا سياسيا أو فكريا أو ثقافيا، فالمتأمل شخصية بشار يجد أنه رجلٌ حاد الطباع متقلب المزاج سريع الاستجابة لما حوله شديد الانفعال، يمكن أن يثور لأقل الأسباب، فماذا يمكن أن نتوقع منه حين يكون في مجلس فيدخل أعرابي فينال منه ويزدريه، يقول الأصفهاني: "دخل أعرابي على مجزأة بن ثور السدوسي وبشار عنده وعليه بزّة الشعراء، فقال الأعرابي: من الرجل؟ فقالوا: رجل شاعر، فقال: أمولى هو أم عربي؟ قالوا: بل مولى، فقال الأعرابي: وما للموالي وللشعر! فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال: أتأذن لي يا أبا ثور؟ قال: قل ما شئت يا أبا مُعاذ فأنشأ بشار يقول:

خَليلَـــيَّ لا أنـــامُ عَلَـــى اقتِســـَار ... ولا آبَـــى علـــى مَـــولى وجـــارِ

سَـــأخبرُ فاخـــرَ الأعـــرابِ عـــنّي ... وعَنـــه حـــينَ تَـــأذنُ بالفخـــارِ

أحـــينَ كسِيـــتَ بَعـــدَ العُـــريِ خَـــزّا ... ونادمـــتَ الكـــرامَ عَلـــي العُقـــارِ

إلى الآخر..." (الأصفهاني، ٢٠٠٠، ج٣: ١٢٧).

لقد رأى كثير من الباحثين في مثل هذا الشاهد ما يدل على شعوبية بشار، إذ عاب على العرب عاداتهم وسخر من أحوالهم، وبالمقابل افتخر بأصله الفارسي، "والصحيح أن مثل هذا الشعر لايخرج عن الإطار الذي قيل فيه والمناسبة المتصلة به، والدافع الذي حمل بشارا على قوله، فلايعدوا كونه ردة فعل طبيعية من قبل شاعر كبير كبشار.وما من أحد ينكر عصبية بشار لأصوله الفارسية ومبالغته في الإشادة بنسبه، واعتزازه الشديد بقومه، ولكن هذا الأمر لاينحل بالضرورة عن مسألة التحزّب، أو العمل المنظم في إطار الشعوبية لبلوغ أهداف سياسية كما توهم بعض الدارسين، بل ينحل عن موقف شخصي، وكيف لا؟ وبشار قد بلغ ما بلغ من الشهرة وذيوع الصيت وعلو القدر، فليس أقل من أن يدافع عن ذاته ويرد كيد الخصوم بكل ما أوتي من قوة، لأنه في مثل هذه الظروف يدافع عن ذاته وشاعريته وتميزه"(على محمد، ١٤٢٦: ٩٨)، من أجل ذلك لم يكن متسامحا حتى مع سيبويه وهو من أصل فارسي حين عاب عليه قوله:

ثلاعِـــبُ نِينَـــانَ البُحُـــورِ ورُبمَّـــا لهَـــوتُ بهـــا في ظِـــلِّ مَروُّومَـــةٍ زُهـــرِ

فقال سيبويه لم أسمع ونينان، فلما بلغ ذلك بشار بن برد قال في هجائه:

أسِـبوَيهِ يـا بـنَ الفـَارسِيَّةِ مَـا الـذي تَحَـدَّثتَ عَـن شَـتمِي ومَـا كنـتَ تَنبِـذُ

(الأصفهاني، ٢٠٠٠، ج٣: ١٥٩-١٦٠)

هذا مع أن بشارا لم يكن بالذي يثبت عند عصبية خاصة بالفرس أو بالعرب، فقدكان بشار كثير التلون في ولائه، شديد الشغب والتعصب للعجم، مرة يقول يفتخر بولائه في قيس:

أَمِنـــتُ مَضَـــرَّةَ الفُحَشَـــاءِ أنِّـــي أَرَى قَيســـاً تَضُـــرُّ ولاتُضـــَارُ

كـــأنَّ النـــاسَ حِـــينَ تَغِيـــبُ عَنهُـــم نَبـــاتُ الأرضِ أخـــطَأَهُ القِطـــارُ

وقَـــد كانَـــت بِتَـــدمُـــرَ خَيـــلُ قَـــيسٍ فَـكـــانَ لِتَـــدمُرٍ فِيهـــا دَمَـــارُ

بحـــيٍّ مِـــن بَـــني عَـــيلانَ شُـــوسٍ يَسِـــيرُ المـــوتُ حَيـــثُ يُقَـــالُ سَـــارُوا

ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول:

أَصـــبَحتُ مَـــولىَ ذِي الجَـــلالِ وبَعضُـــهُم مَـــولىَ العُرَيـــبِ فَخُـــذ بِفَضـــلِكَ فَـــافخَرِ

مَـــولاكَ أكـــرَمُ مِـــن تمَـــيمٍ كُلِّهـــَا أَهـــلِ الفَعَـــالِ ومِـــن قُـــرَيشِ المَشعَـــرِ

وقال يفتخر بولاء بني عقيل:

إنَّـــني مِـــن بَـــني عُقَيـــلِ بـــنِ كَـــعبٍ مَوضِـــعَ السَّـــيفِ مِـــن طُلـــَى الأعنَـــاقِ

(المصدر نفسه: ١٠٦-١٠٧)

الملاحظة الهامة التي لابدّ من تسجيلها هنا هي إيجاد الارتباط بين الشعوبية والزندقة من ناحية بعض الأدباء، فإنهم جعلوا الشعوبية من دوافع المجون ومن ثم الزندقة، على اعتبار الشعوبية كما يقول محمد مصطفى هدارة: "كانت تهدف إلى تحطيم معنويات المسلمين ودس الأكاذيب والمفتريات في أصول دينهم حتى ينتقموا لأصولهم الفارسية" (هدّارة، ١٩٦٣: ٢١٥) وهو حين يصل في بحثه إلى ذكر بعض الشعراء العرب يقول: "هنالك من شعراء المجون من لا صلة لهم بالشعوبية والذي دعاهم إلى ذلك عوامل اجتماعية وثقافية" (المصدر

ISNN 1997-6208

نفسه). يتحير الأستاذ محمد علي من هذه النتيجة في مقالته ويقول: "هذه نتيجة محيرة تثير جملةً من التساؤلات أبرزها: كيف تجتمع أهداف الشعوبية التي تحضّ الشعراء الأعاجم على إشاعة الفساد والتحلل والإباحية لتخريب بنية المجتمع العربي من الداخل تمهيداً للقضاء على وحدته وتسريع انهياره مع الأسباب الاجتماعية والثقافية النابعة من صميم المجتمع العربي والتي تدفع هي الأخرى الشعراء العرب إلى الفساد والتحلل والإباحية، ثم ما مؤدى ذلك؟ هل البنى الاجتماعية والثقافية في المجتمع العربي العباسي أسهمت هي الأخرى في مجون شعرائها لتهدم نفسها بنفسها أيضاً، أقول كيف اجتمعت أهداف الشعوبية مع العوامل الثقافية والاجتماعية في نشوء ظاهرة المجون ومن ثم الزندقة إذا كانت بالفعل ذات أغراض سياسية؟" (على محمد، ١٤٢٦: ٩٤) ثم يستنتج محمد على بأن "المجون عند هدارة مقدمةٌ وفاتحة وتمهيدٌ للزندقة، فإذا كان المجون قد انحصر بالتعبير عما يجانب الخلق القويم والدعوة إلى الإباحية، فإن الزندقة عنده تلامس الشعور الديني والعقيدة، فكلّ معنىً تردد في شعر العباسيين الذين ظهروا في القرن الثاني يشكك في سلامة العقيدة هو داخل في الزندقة والإلحاد، وعلى هذا الأساس عدّ الزندقة كالمجون محصورة في شعراء القرن الهجري الثاني، وهذا اعتبار خاطئ أيضاً لأنّ الزندقة المرادفة للإلحاد لا تتصل بزمن دون زمن" (المصدر نفسه) .

لقد وقف الدكتور طه حسينعند أسباب المجون، فزعم أنّ التماجن في الشعر قد بدأ بتحول السلطة من الأمويين إلى العباسيين، ويرمي من وراء ذلك إلى أنّ العنصر الفارسي كان له الأثر البارز في نشوء هذه الظاهرة (حسين، بلاتا، ج ٢: ٨١)، ثم تبنّى هدارة هذا الرأي عندما لاحظ أنّ أغلب الشعراء المُجّان كانوا من الموالي، وهذا مؤداه إلى أمرين: الأول يشي بأنّ عهد بني أمية كأنّه عهد لم يُعَبّر فيه الشّعراء إلا عن الفضائل، وهذا غير صحيح على الإطلاق فصور النقائض التي شارك فيها كبار شعراء بني أمية كلّها في الهجاء القائم على التهتك وتتبع سوءات الشعراء والطعن في أنسابهم وتحقيرهم إلى الحدّ الذي تنتفي فيه إنسانيتهم، ثم إنّ شعر الفرزدق وما فيه من فحش هل يُصَنّف خارج دائرة المجون؟وإذا أعدنا النظر في غزل الأمويين كغزل عمر بن أبي ربيعة ووضاح اليمن وغيرهما، فهل نجد في ذلك الغزل ما يخالف غزل بشار؟ ما معنى الربط بين المجون وتحول السلطة من

الأمويين إلى العباسيين إذن؟والثاني يتصل بالحكم النقدي المعزول عن الموضوعية، فهل كان كلّ شعراء المجون من الموالي؟ ألم يكن أبو دلامة زند بن الجون والحسين بن الضحاك الخليع وغيرهما على رأس شعراء المجون في العصر العباسي؟ (على محمد، ١٤٢٦: ٩٤).

يبدو مما تقدم أن رغم خلوص بشار من الشعوبية كحزب، اتهموه بالشعوبية لأن يلصقوا إليه تهمة الزندقة ولذلك لم يكن اتهام بشار بالشعوبية إلا خطّة ومؤامرة دنيئة دبّرها أعدائه لتعليق الزندقة بشخصيته؛ ومن العجب أن الباحثين المحدثين أيضا قد أسهموا في تضخيم هذا الإتهام، بحيث عرّفوه شعوبيا وجعلوا الشعوبية من دوافع المجون ومن ثم الزندقةثم جعلوا للعنصر الفارسي أثرا بارزا في نشوء هذه الظاهرة.

ـ ولاء بشار لآل البيت عليهم السلام واتهامه بالزندقة:

كانت ميول بشار العلوية باباً آخر لتعليق الزندقة بشخصيته. أتهم بالرفض والتحامل على من ترك بيعة الإمام علي عليه السلام. وقد يكون هذا الاتهام بسبب ولائه لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله (آذرشب، ١٣٨٢: ٨٣). ويظهر هذا الولاء بوضوح من وقوفه إلى جانب الثائرين العلويين ضد المنصور حين ثار محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم سنة ١٤٥هـ. فاتجه إلى إبراهيم بقصيدة يمدحه وينصحه، وهي قصيدة حظيت بشهرة واسعة، وتناقلتها كتب الأدب، يبدأها بهجاء أبي جعفر المنصور مطلعها:

أبا جَعفَرٍ مَا طولُ عَيشٍ بِدائِمٍ ... ولا سالِمٌ عَمّا قَلِيلٍ بِسالِمِ

ويقول للمنصور فيها:

فَرُم وَزَراً يُنجِيك يَا ابنَ سَلامَةٍ ... فَلَستَ بِناجٍ مِن مُضِيمٍ وضَائِمِ

ويخاطب إبراهيم بقوله:

أقُولُ لِبَسّامٍ عَلَيهِ جَلالَةٌ ... غَدا أَريَحِيًّا عَاشِقاً لِلمَكارِمِ

وينصحه بالشورى في بيت رائع بقوله:

ولا تجعَلِ الشُّورَى عَلَيكَ غَضَاضَةً ... مَكانُ الخَوافِي قُوَّةٌ لِلقَوادِمِ

(ابن برد، ١٩٦٦،ج٢: ٥٠٠-٥٠٤)

ISNN 1997-6208

وكذلك مما يثبت ميول بشار العلوية قول الجاحظ فيه كما ذكره الأصفهاني بأن بشاراً كان يدين بالرجعة (الأصفهاني، ٢٠٠٠، ج٣: ١١١) والقول بالرجعة يتصل بعقيدة المهدي عليه السلام حيث يرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وعليٌّ والحسن والحسين وباقي الأئمة عليهم السلام، وخصومهم إلى الدنيا ويُعذب من اعتدى على الأئمة وغصبهم حقوقهم أو قتلهم، ثم يموتون جميعا، ثم يحيون يوم القيامة (أحمد أمين،بلاتا:٦٧٠) وليس من شك في أن القول بالرجعة من مختصات الشيعة الإمامية، وبما أن أهل السنة يردّون الإعتقاد بالرجعة ويستقبحونه(مظفر، ١٣٨٠: ١٣٥-١٣٧) فكفّروا بشاراً واتهموه بالزندقة، ويؤيد هذا الرأى ما ذكره الأصفهاني قائلا:" كان بشار صديقا لأبي حُذَيفة واصل بن عطاء قبل أن يدين بالرجعة ويكفر الأمّة"(الأصفهاني، ٢٠٠٠، ج٣: ١٧٠) حيث صار واصل إلى الاعتزال وصار بشار إلى الرجعة، فحدث اختلاف بين الرجلين من حيث المذهب الفكري، وانقلبت العلاقة بينهما من علاقة ود واعجاب إلى علاقة عداء وخصومة، ولذلك حرّض واصل الناس على بشار متهما إياه بالزندقة والفجور، وكان يقول في مجالسه: "أما لهذا الأعمى الملحد، أما لهذا المشنّف المكنيّ بأبي معاذ من يقتله؟ "(المصدر نفسه: ١١١) وواضح أن السبب الرئيسي في الخصومة بين الرجلين، الذي حمل واصل بن عطاء على اتهام بشار بالزندقة هو عقيدته بالرجعة وهي من معتقدات الشيعة الإمامية.

هذا ومن جانب آخر نرى في بعض أخبار بشار وأشعاره ما يدل على التزامه بالإيمان الصحيح، وبأداء الصلاة والصوم والحج وشرائع الإسلام. يقول مثلا في ترك شرب الخمر في شهر رمضان:

في لَيلَةٍ خَلَفَ شَهرِ الصَّومِ نَاقِصَةٍ ... تِسعاً وعِشرِينَ قَد أَحصَيتُها عَدَدَا

حَتَّى ارتَقَيتُ إلَيهَا في مُشيَّدَةٍ ... دُونَ السَّماءِ ثُنَاغِي ظِلَّهَا صَعَدَا

(ابن برد، ١٩٦٦، ج١: ٥٣٧)

ويذكر ابتعاده عن الحكام حرصا على دينه ويقول:

ومُلوكٍ إن تَعَرَّضتُ لهَم ... عَرَّضُوا دِيني وَشِيكاً لِلعَطَب

(المصدر نفسه: ٢٦٢)

ويقول ذاكرا المعاد:

وعَجِيـــبٌ نَكـــثُ الكـــرِيمِ ولِلنَّفـــ ... ـسِ مَعـــــادٌ ولِلحَـــــيَاةِ انقِـــضَاءُ

(المصدر نفسه: ٥٥)

ويذكر صدق دينه في بيت يتحدث فيه عن نفسه:

يَصـــــدُقُ فِي دِيـــــنِه ومَوعِـــــدِه ... نَعَـــم ويُعـــطَى النَّـــدَى عَلـــى كذِبِـــه

(المصدر نفسه: ١٠٦)

ويقول في البعث والحساب:

كيـــفَ يَبكـــي لمحـــبَسٍ فِي طُلُـــولِ ... مَـــن سَيُقصَـــى لِيـــوَمِ حَـــبسٍ طوِيـــلِ

إنَّ فِي البَعـــثِ والحِســـابِ لَشُـــغلاً ... عَـــن وُقُـــوفٍ بِرَســـمِ دارٍ محُـــيلِ

(المصدر نفسه،ج ٢: ٤٨٤)

د) حصيلة البحث:

نستنتج من كل ما تقدم أن أبانواس وبشار بن برد لم يكونا من الزنادقة الملحدين الشعوبيين كما صوّره بعض المؤرخين والحق أن بعض الناس اتخذوا الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم سواء في ذلك الشعراء والعلماء والأمراء والخلفاء، فالزندقة والشعوبية والخلاعة كانت شبهة حاضرة لكل من يخرج على أمر الخليفة أو يهجوه وما نسبوا إلى هذين الشاعرين من مجون وزندقة لاتتناسب مع شخصيتهم الحقيقية كما كان ولاءهما وتشيعهما لآل البيت عليهم السلام وكذلك الاتهام بالشعوبية من الأسباب الهامة التي اتهم الشاعران إلى الزندقة.

الملخص:

لاريب أن العصر العباسي الأول بما فيه من أحداث خطيرة وتحولات هامة في مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية، عصر ذهبي مزدهر في كثير من الجوانب. لكن تاريخه لايخلو من النقولات والأخبار الكاذبة التي لها دور هام في بعض آراء النقاد والعلماء

المعاصرين. لذلك يجب على الباحثين وطلاب الحقيقة إعمال النظر الدقيق في مقاربة القضايا التاريخيةوعدم التسليم بجميع النقولات التاريخية وما ذكرهاالمؤرخون مهما علا شأنهم إلا بعد الاطمئنان إلى سلامة القصد والتجرد من الأهواء والميول السياسية والمذهبية. كل ذلك أن المتتبع لأخبار بعض الشخصيات الكبار من أمثال أبي نواس، بشار بن برد، ديك الجن الحمصي و... ليجد منهم شخصيات زنادقة وشعوبيين عابثين ماجنين يشربون الخمور ويغرقون في الموبقات وليس هذا إلا ظلما وغلاّ ألقاهما بعض مؤرخي كتب الأدب عامدين أو غير عامدين على عاتقهم. القصد من هذا البحث هو الكشف عن الأقنعة التي سترت – ولاتزال – شخصية شاعرين كبيرين: أبي نواس وبشار بن برد. كما يسعى هذا المقال إلى إلقاء الضوء على الأسباب التي أدت إلى اتهامهما بالزندقة والشعوبية والخلاعة وكانا خالصين منها والمنهج الذي نريد من خلاله النظر إلى شخصية هذين الشاعرين فقائم على عرض الأخبار المتصلة بزندقتهما وشعوبيتهما وشخصيتهما، وتحليلها ومناقشتها ومقابلتها بأشعارهم المشهورة في هذا الباب.

الكلمات الرئيسية: أبو نواس، بشار بن برد، الزندقة، الشعوبية، التشيع.

Abstract

Undoubtedly that the Abbasid era, including the first of the serious events and significant changes in the levels of various political, social and cultural prosperous golden age in many aspects. however, to date and news that have an important role in some of the views of critics and contemporary scholars. For such case should researchers and students the truth the realization of careful consideration in the approach historical issues and non-delivery of all historical and mentioned what the historians no matter how high their business only after reassuring to the safety of intent and impartiality of the passions and political and sectarian tendencies. Each such case that some follower of the news personalities adults from the likes of Abu Nawas and Bashar ibn Burd,... To find them heretics and populist figures wanton magnin drink alcohol and plunge into vices and this is not only unfair some historians wrote literature

deliberately or non-deliberately upon themselves. The intent of this research is the detection of masks start personal poets: Abu Nuwas and Bashar bin Burd. this article also seeks to shed light on the reasons it led to charges of heresy and populism and pornography and the approach that we want to look at which of these two poets Personal to view news related and their characters, and analyzed and discussed and interviewed famous in this section.

Key words: **Abu Nuwas, Bashar ibn Burd, Heterodoxy, populism, Shiism.**

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- آذرشب، محمد علي، (١٣٨٢)، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي، الطبعة الأولى، طهران: منظمة سمت.

٢- إبن المعتز، (١٩٥٦م)، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار احمد فرّاج، الطبعة الثانية، القاهرة: دار المعارف.

٣- إبن خلكان، (١٣٩٨) وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر

٤- إبن عساكر، (١٩٣٢م) التاريخ الكبير، الشام: مطبعة الروضة.

٥- إبن منظور، (١٩٦٦م)، مختار الأغاني في الأخبار والتهاني، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٦- إبن منظور، (١٩٩٥م)، أخبار أبي نواس، الطبعة الثانية، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٧- أبو نواس، (١٩٩٧م)، الديوان، شرحه وضبطه علي العسيلي، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٨- الأصفهاني، أبو الفرج،(٢٠٠٠)، الأغاني، تحقيق علي البقاعي، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٩- أمين، أحمد، (بلاتا)، ضحى الإسلام، الطبعة العاشرة،بيروت: دارالكتاب العربي.

١٠- بشار بن برد، (١٩٩٦م)، الديوان، شرح حسين حموي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الجيل.

١١- البغدادي، الخطيب، (١٩٣١م)، تاريخ بغداد، الطبعة الأولى، القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٢- بيضون، لبيب، (١٩٩٨م)، بهلول الكوفي، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة البلاغ.

١٣- ضيف، شوقي، (بلا تا)، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، الطبعة العاشرة، القاهرة: دار المعارف.

١٤- طه حسين، (بلاتا)، حديث الأربعاء، القاهرة: دار المعارف.

١٥- علي محمد، أحمد، (١٤٢٦)، المجون في شعر بشار بن برد دوافعه وأبعاده، العدد ٩٨، التراث العربي، صص ٩١ - ١٠٥.

١٦- الفاخوري، حنا، (١٤٢٧)، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثالثة، قم: منشورات ذوي القربى.

١٧- الكفراوي، محمد عبد العزيز، (بلا تا)، تاريخ الشعر العربي، الجزء الثاني، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

١٨- اللحام، سعيد، (١٤٢١)، نوادر الشعر والشعراء،بيروت: دار الفكر.

١٩- مظفر، محمد رضا، (١٣٨٠)، عقائد الإمامية، ترجمة كاظم خلخالي،الطبعة الأولي، قم: منشورات حضور.

٢٠- المعرّي، أبو العلاء، (١٩٨٣م)، رسالة الغفران، شرحها وحققها الدكتور علي شلق، بيروت: دار القلم.

٢١- موسوي بجنوردي، كاظم، (١٣٨٣)، دائرة المعارف بزرگ اسلامى، ج١٢، الطبعة الأولى، تهران: مركز دائرة المعارف اسلامي.

٢٢- موسوي بفرويي، سيد محمد جواد، زندقة بشار بن برد بين السياسة والواقع، العدد١، بحوث في اللغة العربية وآدابها، ص ص١٢١ - ١٢٩.

٢٣- نيكلسون، رينولد، ترجمة كيواندخت كيواني، الطبعة الأولى، طهران، منشورات ويستار، ١٣٨٠هـ.ق

٢٤- هادي بور، يوسف، (٢٠٠٩م)، قراءة جديدة للفكر النواسي http://www.diwanalarab.com/spip.php.

٢٥- هدّارة، محمد مصطفى، إتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣م.